فى مدينة بروسة (١)

للدكتور عبد الوهاب عزام

هذه بروسة الجميلة تشرف العين على سهلها المشجر ، تلوح سقوفها المسنّمة من خلال أشجارها منثورة فى سفح الجبل وحضيضه . وهذا « يشيل جامع » الذى شاده السلطان العظيم « مجدّد الدولة » محمد بن بايزيد ، وهو الذى اختاره القدر ، بعد أن تقسمت اخوته الخطوب ، ليجمع شتات الدولة بعد أن انفرط عقدها فى موقعة انقرة ، وثوت الصاعقة رهن المحبس والقيد(٢) وبعد أن تنازع أشبال بايزيد ميراث أبيهم ، وتعادى بهم الخلاف بضعة عشر عاماً . لقد قدر لمحمد أن يستأنف المسير فى سبيل المجد الذى سلكه آباؤه . أين محمد وجد محمد ؟ تجيبك هذه القبة الخضراء وراء المسجد . فهناك رفات السلطان وبعض أبنائه .

وانظر الى اليمين فهذا المسجد المشرف بين الأشجار على السفح ، والذى يحاول السرو الباسق حوله أن يطاول منارتيه ، هو مسجد الأمير محمد البخارى وهذه قبة ضريحه . وكم تحت هذه الأشجار من قبور عاذت بقبر هذا الرجل الصالح . ولله هذا الرجل العظيم ، فما ينسى له التاريخ صرامته فى الحق ، ومجابهة السلطان بالنصح واللوم .

كان السلطان بايزيد يتهم بالخمر ، فلما بنى مسجده الكبير دعا الأمير البخارى ليراه ، وبيناهما يقلبان النظر فى بناء المسجد قال السلطان للشيخ : ما ترى فى هذا المسجد العظيم ؟ قال : حسن ،

(١) كتبت فى بروسة ضحى يوم الجمعة ١٣ سبتمبر سنة ١٩٢٩

(٢) الصاعقة (يلدريم) لقب السلطان بايزيد الأول

ولكن لابد أن تقام فى كل زاوية من زواياه حانة ليأتى السلطان اليه !

وأرى ذات اليمين جامع بايزيد تلوح قبتاه ومنارته ، وبجانبه قبة تحنو على قبر السلطان العظيم . سطور من الخطوب والعبر لا تجد العين منها مهرباً .

ألا ترى الى اليسار (أولو جامع) ذا العشرين قبة ؟ هذه قبته الكبيرة التى تنفذ الأضواء منها الى الحوض الكبير ، فيسيل عليه النور فى ماء النافورة المنبجس ليل نهار ؛ وكأن خريرها دعوة الى الصلاة لا تفتر ، وتسبيح مع المسبحين لا يصمت . وماذا على جدران هذا المسجد من بدائع الخط وسطور الجمال ؟ لقد افتن الكتاب على مر العصور فى تزيينها بكل آية من الخط الجميل ، وانها لحجة قائمة على الذين يريدون هجر الخط العربى الى الكتابة اللاتينية . وكلما أدرت عيني فى هذا المسرح الرائع عادت الى هاتين المنارتين البيضاويتين المشرفتين على الجامع كأنهما شمعتان . وكل مآذن بروسة تشبه الشمعات ، وما أشبه المآذن بالمصابيح : تهدى فى ظلمات الضلال ، وبحق سميت منارات .

وانظر هذا البرج البعيد على سفح الجبل فى مكان من القلعة القديمة حيث قبرا الرجلين العظيمين عثمان وأورخان .

لست أرى جامع مراد الثانى وضريحه والقبور التى أطافت به وبينها قبر جم الأمير التعيس ، ولا أبصر جامع مراد خداوندكار شهيد قوصوه ، ولا قبره مشرفا على السهل منطوياً على سره وجلاله ، ولا ينابيع المياه الحارة والباردة منبجسة بفنائه . وما أجمل ينابيع الماء فى بروسة مساجدها وطرقها تلقى السائر حيثما توجه متدفقة بالحياة ليلا ونهارا .

وأين مسجد أورخان أقدم مساجد بروسة ؟ غيبه عن عيني الجبل والشجر ، ولكنه لم يغب عن القلب وجهه المتواضع

وليت شعرى ماخطب هذه المآذن الصغيرة ، والقباب الخاملة المنثورة فى المدينة ؟ بناها قوم لم يبلغوا من حظ الدنيا ونباهة الذكر ما بلغ هؤلاء . ولعلهم كانوا أسعد حياة ، وأعظم عند الله شأنا . وإن الجاه والمجد والسلطان وما يحيط بها من ضوضاء هذه الحياة لأسوأ ما يكافأ به الرجل الطيب ذو النفس الزكية فى هذا العالم . فلا تأس على ما فات الصالحين من جلبة هذه السوق .

(البقية على صفحة ١٠٠٠)

الاسلامية خفاقاً فى ذلك العباب الذى بقيت السفن المصرية قروناً تتخطى صهوته ، وتجوس خلاله فى عزة وفخار .

إن مصر تستأنف نشاطها البحرى فى ميدان السلم ، لا فى ميدان الحرب ؛ وليس غريباً أن يكون لها بواخر تشق العباب ، ولكن الغريب أن لا يكون لها بواخر ، وتثورها محط البواخر الأجنبية من أقاصي العالم . . . .